

جمالية الحكاية الشعبية العجائبية في الجزائر

THE AESTHETIC OF THE FANTASTIC FOLK TALE IN ALGERIA

<p>د.مسيردي مصطفى كلية الآداب واللغات والفنون. جامعة جيلالي ليابس. سيدي بلعباس. mmesirdi@gmail.fr</p>	<p>فتحي خيرة * كلية الآداب واللغات والفنون. جامعة جيلالي ليابس. سيدي بلعباس. fathi_kheira@hotmail.com</p>
---	---

تاريخ الوصول: 2020-12-19 تاريخ القبول: 2021-04-27 تاريخ النشر: 2022-05-13

ملخص:

ارتبطت الحكاية الشعبية بالذاكرة الجماعية، باعتبارها سجل خبراتها وإنجازاتها، وتكمن أهميتها في غناها بالقيم الإنسانية والاجتماعية، لذلك حرصت الشعوب على توارثها جيلا بعد جيل. والتراث الشعبي الجزائري، على غرار باقي الثقافات غني بحكاياته التي تسمح لنا بأن نستنطق الذات الجزائرية، وأن نكشف عن آمالها وآلامها، بواسطة مكوناتها السردية التي تخضع للخيال، والتي تتيح لنا الولوج إلى عوالم الميثولوجيا والخراف العجيبة، فالجماعات الشعبية كانت ترى في الحكاية الشعبية مفرا من عالم مثقل بالواقع إلى عوالم الحكاية الخيالية، حيث يخترقون ذلك الواقع المظلم أحيانا بمخيلة خصبة ليخلقوا عالما موازيا عجيبا. الكلمات المفتاحية: العجائبي – الحكاية الشعبية – الخيال -التردد-المسخ.

Abstract: The folk tale was linked to collective memory, as a record of its experiences, achievement and its importance lies in its richness in human and social values, therefore, the peoples were keen to inherit it a generation after generation.

And the Algerian folklore, like the rest of the cultures is rich in its own tales that allows us to question the Algerian self, and to reveal her hopes and pain, through the narrative components that are subject to the imagination, Which allows us to access the worlds of mythology and supernatural paranormal, Folk groups saw the folk tale as inevitable from a world that was overloaded with reality to fictional worlds, They penetrate that dark reality sometimes with fertile imagination to create a wonderful parallel world.

Keywords: Fantastic, Folk tale, fiction, hesitation, monstrosity.

1. مقدمة:

تعد الحكاية الشعبية من أهم منجزات الإنسان، التي ترجمت ذاته وعززت من كيانه، فهي بناء سردي، تضافرت فيه عدة مكونات، أتاحت للمبدع الشعبي أن يهرب من سلطان الواقع وجبروته، وأن يبحر في عوالم سحرية عجائبية، عله يجد فيها ما عجز عن تحقيقه في واقعه المعيش.

والتراث الشعبي الجزائري غني بحكايات شعبية اتخذت من العجيب وآلياته مطية لسحر القلوب والألباب، ونظرا لأهمية هذا التزاوج بين الحكيم الشعبي والعجائبي، ارتأيت أن أسلط الضوء على هذا التوظيف، من خلال محاولة الإجابة عن تساؤلات مفادها: إلى أي مدى نجح المبدع الشعبي الجزائري في تمثيل العجيب في ثنايا حكيه؟ وما الذي اكتسبه المبدع والمتلقي في الآن ذاته من اصباح الحكيم الشعبي بألوان العجيب؟ وهل للحكاية الشعبية العجائبية مقاصد خفية أم أنها لا تعدو أن تكون خطابا تسلية وترفيه عن النفس؟.

. مفهوم العجائبي:

1.2 لغة:

يندرج لفظ العجيب ضمن الجذر اللغوي (ع ج ب) الذي يحيل بدوره على صيغ ومشتقات متنوعة: عجب، عجيب، عجاب، عجا، يعجب... ورد في لسان العرب: "العَجْبُ والعَجَب، إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده، وجمع العجب أعجاب"، وجاء في محيط المحيط "العجب: إنكار ما يرد عليك واستطرافه وروعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء والتعجب انفعال نفسي عما خفي سببه"¹، أما الخليل الفراهيدي في معجمه العين فقال: "أما العجيب فالعجب وأما العُجاب فالذي جاوز حد العَجْب مثل الطويل والطوال".

وتأسيسا على ما ذكر في هذه التعريفات الثلاث، نستنتج أن لفظ العجب قد دار مفهومه اللغوي في فلك التردد والحيرة والدهشة التي يصاب بها الإنسان عند استعظامه لشيء خارج نطاق المؤلف والمتعارف عليه، أي أنه في معظمه انفعال نفسي تجاه الظواهر الخارقة للعادة، المثيرة للحيرة فيحاول كرد فعل لذلك العجيب فهمها واستيعابها. كما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح العجائبي لم يرد في المعاجم العربية القديمة، إنما تردد لفظ العجب ومشتقاته (العجب، العجيب، العجاب).

والعجائبي هو المقابل العربي لمصطلح le fantastique، فإذا ما تصفحنا قاموس le Petit la Rousse نجد التعريف التالي: "العجيب هو الذي يبعد عن ساحة المؤلف والعادي للأشياء أو الذي يظهر فوق الطبيعي مثيرا الإعجاب بخصائصه الخارقة النادرة"، ونجد معجم روبر الصغير (le Petit Robert) بدوره قد عرف العجيب بأنه: "الذي لا يفهم طبيعيا وهو عالم ما فوق طبيعي"² بمعنى أنه يحيل إلى كل ما هو خيالي وغير واقعي.

اعتمادا على ما ورد في هذين المعجمين نخلص إلى أن مفهوم العجائبي يحيل إلى حقل دلالي شمل كل ما لا يفهم طبيعيا، وما يثير الدهشة المصحوبة بالحيرة التي تصدم المتلقي وقد يحاول عبثا تفسيرها وفق منظوره للعالم.

2.2 اصطلاحاً :

لطالما استهوى الإنسان على مر العصور أن يستكشف ما وراء العالم الذي يعيش فيه ، أن يفتح نافذة يطل من خلالها على عوالم خيالية تكسر رتابة واقعه المعيش ، فاستأنس في سبيل ذلك بالعجائبي لخلق بعداً " يجمع فيه الخيال الخلاق مخترقاً حدود المعقول و اللامنطقي والتاريخي والواقعي ومخضعا كل ما في الوجود من الطبيعي إلى الماورائي ، لقوة واحدة فقط ، هي قوة الخيال المبدع المبتكر الذي يجوب الوجود بإحساس مطلق بالحرية المطلقة ، يعجن العالم كما يشاء ،... إنه الخيال جامحا ، طليقا ، منتهكا" ³ حدود المعقول .

إن العجائبي عالم قائم على الخيال المنطلق من الواقع "الذي يكون في تمظهراته هو الجانب المستهدف في التفسير الفانتاستيكي حيث يخضع لتحولات وامتساخات ، يلجأ فيها الكاتب إلى استعمال غزارة قواه ، وحوافزه كي يشهد على الواقع الإنساني شهادة من بعد مغاير للأبعاد التي ينظر منها الآخرون" ، بمعنى أنه يمكن النظر للعجائبي على أنه وسيلة نتمكن من خلالها الغوص في دوافن النفس البشرية ، وما يشعر به الفرد من انهماكات وخوف ورعب دائمين تجاه نفسه وعالمه الخارجي .

يرى تودوروف Tzvetan Todorov أن العجائبي هو " التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية ، فيما يواجه حدثاً فوق طبيعي حسب الظاهر" ⁴ ، وقد بنى تودوروف معظم مقارنته لنصوص كثيرة من الأدب العجائبي على خاصية لفظية واحدة وهي خاصية التردد ، ذلك بعد أن تفحص كما هائلا من النصوص السردية التي احتوت على أجواء عجائبية ، وباعتماده كذلك على تعاريف سابقه أمثال : (بيار جورج كاستكس Georges Castex Pierre) ، و (روجيه كايوا Roger Caillois) ، خلص إلى أن العجائبي لا يدوم إلا " زمن تردد ؛ تردد مشترك بين القارئ والشخصية ، اللذين لابد أن يقررا ما إذا كان الذي يدركانه راجعا إلى الواقع كما هو موجود في نظر الرأي العام أم لا" ⁵ ، فهذه الخاصية أي التردد في منظور تودوروف قائمة بين "التفسيرين العقلاني واللاعقلاني للظواهر التي تنبجس من رحم الواقع ، هذا التردد يجب أن تشعر به الشخصيات في الحكاية ومن ثمة القارئ المتماهي مع الشخصية" ⁶ ، أمام طبيعة الحدث العجيب .

فالكائن " هو ذاكرة لها قوانين طبيعية ، يتواجد فجأة أمام حدث غير طبيعي ، فيكون هناك تصادم بين الطبيعي وبين غير الطبيعي ، وبين الألفة وعدم الألفة ، صدام يترك جروحه الخفية ، ويغذيها أكثر فأكثر ، بما يؤجج الصدام ويطنبه بطابع التردد" ⁷ المنعكس على إدراك المتلقي ، فالتردد الذي يصيب السامع مثلا للحكاية شعبية بطلها نصف آدمي ونصف وحش ، يدفعه إلى الإحساس بالحيرة ، جراء زعزعة المؤلف لديه ، بإقحام "عنصر فوق الطبيعي لعالم خاضع للعقل ، وهذا الشيء المرعب ، المخيف له مكانته في العالم الطبيعي" ⁸ ، وهو ما يتيح للتردد أن يتمكن من المتلقي .

نلاحظ أن شعيب حليفي قد فضل لفظ الفانتاستيك على العجائبي ، حيث عرفه بأنه " الشكل الجوهرية الذي يلجأ إليه التعجيب ، كما يمثل مكتوبا يقدم شخوصا وظواهر فوق طبيعية ، يمتزج فيها الطبيعي

بفوق الطبيعي، بطريقة مقلقة تجعل المتلقي يتردد بين تفسيرين للأحداث، ويشكل هذا التردد العنصر الأساسي للفانتاستيك من خلال بحثه عن مفاجآت لعالمنا العادي والمألوف⁹، فالعجائبي إذن مرتبط بالحالة النفسية والحسية التي تصيب الإنسان عند مصادفته لشيء غير مألوف، وردة فعله تجاه ما يتلقاه من ظواهر فوق طبيعية. واستنادا إلى ما سبق نلاحظ أن العجائبي يستند "إلى تداخل الواقع والخيال، وتجاوز السببية وتوظيف الامتساخ والتحويل والتشويه ولعبة المرئي واللامرئي، دون أن ننسى حيرة القارئ بين عالمين متناقضين: عالم الحقيقة الحسية وعالم التصور والوهم والتخييل"¹⁰، إن الحيرة أو كما ترجمها شعيب حليفي عن تودوروف بمصطلح التردد هي التي توقع المتلقي لها «بين حالي التوقع المنطقي والاستغراب غير الطبيعي أمام حادث خارق للعادة لا يخضع لأعراف العقل والطبيعة وقوانينهما»¹¹ فذاك هو العجيب.

فعندما يستمع المتلقي إلى حكاية شعبية تتعامل مع أشباح تنتهك حياة الإنسان، أو إلى غول يحاول التهام فتاة، فهو يشعر بالرعب، والرعب كما قال تودوروف: "مبدأ القصص الخارقة، ومن الدارسين من لا يحكم على القصة الخارقة من خلال مقاصد كاتبها ونسيج حبكة بل من خلال قوة الانفعال التي تثيرها في قارئها... فالقصة تكون خارقة إذا ولدت لدينا الإحساس بالخوف العميق"¹²، ومن هنا يتولد التردد في أنفسنا أنقبل أحداث الحكاية أو نرفضها؟

بناء على ما سبق نخلص إلى أن العجائبي هو "صراع الواقعي واللاواقعي، المؤلف واللامألوف، الطبيعي وما فوق الطبيعي"¹³، ويتجلى هذا الصراع في القصص والحكايات التي تحاول أن تجعل من اللاعقلاني إحدى السمات البارزة لها، حيث "يصبح العجائبي لونا من ألوان السحر اللاواقعي، إنه برق خاطف للأبصار وموجة عاتية تمحو كل ما هو مألوف وطبيعي، وتجعل الإنسان مأخوذاً بسحر هذا الكوكب المضيء لحياة الإنسان الطبيعية"¹⁴، وهذا السحر سينشله من واقعه المقيد فيه ليحرره في عالم عجائبي لا يتقيد بأية قواعد تمت للواقع بصلة، إنما العالم العجائبي عالم له أحكامه الخاصة.

3 الحكاية الشعبية:

الحكاية الشعبية هي "الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر، وأوهي خلق آخر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخص ومواقع تاريخية"¹⁵، فكل أمة ورثت عن أسلافها مخزوناً تراثياً غنياً بالتجارب والعادات والتقاليد، جمعت في قالب الحكاية التي "بدأت مع تاريخ الإنسانية نفسه، لا يوجد ولم يكن يوجد قط شعب من دون حكاية، فلكل الطبقات الاجتماعية، ولكل الجماعات البشرية حكاياتها الخاصة بها"¹⁶، حسب أعرافها ومعتقداتها الخاضعة لها.

قد تكون الحكاية الشعبية "مجموعة من الأحداث والأخبار والأفعال والأقوال سواء كانت حقيقية أي مأخوذة من الواقع الذي يطلقه الفرد أو المبدع الشعبي ليصور الأحداث التي تشكلت في مخيلته ويريد سردا في قالب فني حكاية لإضفاء نوع من المتعة والتشويق على الحكاية ليستمتع إليها المتلقي"¹⁷ تتشكل الحكاية الشعبية

من تراكم لحكايات أخرى رويت في غابر الأزمان، وامتزجت بالأساطير التي عكف الإنسان قديما على الرجوع إليها عله يجد إجابات كلما استصعب عليه فهم شيء ما، هذا التواتر الذي ساهم في إثراء الحكايات الشعبية، فكل جيل يضفي بهاراته الخاصة على هذه الحكاية، لكنه في نفس الوقت قد صعب من مهمة التعرف على أصل نشأة الحكاية.

على الرغم من التطور التكنولوجي البالغ الأهمية المعيش، فلا زالت الأحاديث تغمر بمرويات الأسلاف، ولازلنا نستأنس بحكايات الجدات الشعبية خاصة الخرافية منها، رغبة في الحفاظ على التراث الفلكلوري لبلادنا، والاحتفاظ بعقب الماضي المقترن به، وما يميز الحكاية الشعبية الجزائرية هو اللهجة المميزة التي تحكى بها، فلا نستطيع سلكها عن نسقها اللغوي الأصلي، دون أن نُخل بها ونساهم في اندثارها، فشعريتها مرتبطة باللهجة ملقيها، فالدارس للحكاية الشعبية عليه أن يحترم ذلك النسق الشعبي وأن لا يحاول تغييره، أو تبدله سياقاً ونسقاً.

4 تجلي العجائبي في الحكاية الشعبية الجزائرية:

يقوم العالم العجائبي على المزج بين الخيال والواقع، لكنه يتجاوز المعقول ليعانق المستحيل، والإنسان بطبعه يميل إلى العجيب والمتخيل الذي يخلق له الدهشة والتردد، وقد يتخذه رافداً لتفسير الظواهر التي تواجهه، وهذا ما حقق للحكاية الخرافية الشعبية شعبيتها، إذ «تلتقي فيها ظاهرتان لطبيعة الإنسانية، ظاهرة الميل إلى الشيء العجيب، وظاهرة الميل إلى الشيء الصادق والطبيعي، فحيث تلتقي هاتان الظاهرتان، توجد الحكاية الخرافية على أن هاتين الظاهرتين يتحتم أن تجمع بينهما علاقة صحيحة، فإذا لم توجد هذه العلاقة الصحيحة فقدت الحكاية الخرافية سحرها وقيمتها»¹⁸ الثقافية في الأوساط الشعبية.

4. 1. عجيب الحيوان الخرافي " الغول ":

دُكرت شخصية الغول في كثير من الحكايات الشعبية، فقد "تعود الخيال الشعبي أن يجسد مخاوفه من المجهول على شكل مخلوقات عجيبة من طير السماء أو وحش الأرض أو الماء... وتعود حين يرسم هذه المخلوقات أن يجمع لها كل صفات العنف والقسوة من ناحية، وكل القدرات الخارقة التي تفوق قواه المحدودة من ناحية أخرى"¹⁹، فالغول في المخيال الشعبي شخصية محركة للأحداث في الحكاية، وباعثة للتشويق والإثارة من جهة، وباعثة للخوف لدى الأطفال والسذج من جهة أخرى.

وغالبا ما "يستمد الخيال الشعبي وحوشه المخيفة من الحيوان، وربط هذه الوحوش بمآثره المتوارث حول الحيوان، وربط هذه الوحوش بقوى الشيطان والجن، كما ربطها بقوى السحر"²⁰، وقد يرتبط ظهور الغول في الحكايات الشعبية بصورة الحيوان المفترس "لما كانت الحيوانات المفترسة قليلة الظهور للناس، فإن المخيلة تضيف له مواصفات قد لا تكون حقيقية ولا تعدو أن تكون مجرد مبالغات في البداية، ومن رواية إلى أخرى ومن واقعة وحادثة تولد أسطورة الوحش الغريب الأسطوري، ويولد على مثلها عالم موازن لعالمنا تسكنه الغيلان والكائنات الخرافية"²¹.

وقد انطبع في فكر الجماعات الشعبية صورة خيالية بشعة للغول تبعث على الخوف وتوحي بالموت والهلاك، فغالبا ما يصور " بأنه ذو رؤوس سبعة، وهي عملاقة في قامتها تتغذى بلحم البشر، وهوى سفك الدماء، وتتلذذ بالاعتداء على الأرواح، كما لا تتورع الغيلان في اختطاف الفتيات الجميلات ليالي أعراسهن وتقبض عليهن في أعماق الآبار حيث لا تعيدهن إلى أهاليهن"²²، كما أنها تملك قدرة التشكل في أي صورة أرادت، فتخلق بذلك عالما عجائبا يميز الحكاية الشعبية ويضفي عليها من التقديس والتبجيل في المفهوم الشعبي، وقد نلمس ذلك في حكاية "عيشة بنت الخطاب"، فقد أحبها غول وتزوج بها، وظهر في البداية على شكل طائر يساعد أباهما الخطاب في النهار، بطرق سحرية تضمنه له قوته ويلبي له كل رغباته، ويتحول إلى إنسي في الليل، لكنه يختطف عيشة بنت الخطاب ويتزوج بها، لكنها تفر منه بعد ان تتعرف على حقيقته، لتقابل في طريقها غولة، تريد أن تلتهما، فتتمكن من قتلها بطريقة ذكية، وبعد أن يبحث عنها الغول الأول ويعرف مكانها، تعود مجددا معه ويعيشا في سعادة عجائبية.

يتشكل العجيب في هذه الحكاية من الصراع بين قوى الغول، وقوة الإنسان المتمثلة في ذكائه، إذ استطاعت الفتاة عيشة أن تهزم الغولة القوية بواسطة حيلتها وذكائها، على الرغم من رمزية الغول في الحكايات الشعبية واقترانه غالبا بالقوة والغلبة، إلا أن الجماعات الشعبية التي تداولت هذه الحكايات، حرصت على أن يتوج الصراع بين الإنسان والغول بفوز الإنسان دلالة على القدرة العظيمة التي حباه الله بها وكرمه لقوله عز وجل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)²³ وهي العقل، وهي دعوة لجمهور المتلقين إلى ضرورة إعمال العقل في مواجهة الصعاب.

كما تتجلى في هذه الحكاية مفارقة عجيبة في شخصية الغول، إذ مثل ثنائية الخير والشر، فالغول الأول الذي ساعد الخطاب مرات كثيرة في كسب قوت يومه، ثم يساعد عيشة وينقذها من الغولة، والتي مثلت جانب الشر، حين أرادت التهامها، فالعجيب هو محاولة الغول مساعدة الإنسان وهو الذي من الدارج في الحكايات أن يكون عدوا للإنسان.

4. 2. عجيب المسخ:

يعود توظيف تيمة المسخ إلى عقائد شعبية قديمة، فقد وظفت منذ القدم بدءا من الآداب اليونانية " ومنه في (الأوديسا) مسخ أصحاب (بوليسس) إلى خنازير، وتوجد أشعار يونانية قديمة موضوعها المسخ"²⁴، ومن أشهر هذه الأعمال "مسخ الكائنات (Métamorphoses) للشاعر الروماني (أوفيدوس بيليوس ناسو Ovidius Publius NAS) 18م، وهو عبارة عن ملحمة شعرية ضخمة متكونة من أكثر من اثني عشر ألف بيت، تشتمل على ما يربو على مائتي وأربعين خرافة وأسطورة... وهي أساطير تتعلق بصور التحولات والمسوخ التي تطرأ على الكائنات لا سيما منها الإنسان وتحوله إلى حيوانات أو نباتات أو بحار أو نجوم"²⁵ تسطع وتخبو، وقد ذكر المسخ في رواية "الحمار الذهبي" للأمازيغي الروماني "لوكيوس أبوليوس" (125-170م)، ويعد من أوائل

النصوص الروائية في تاريخ الإنسانية ، التي ذكرت السحر والمسح وتحكي الرواية قصة "لوسيسوس" الذي طلب من امرأة ساحرة أن تحولته إلى مخلوق آخر ، فتخطى الساحرة وتمسخه إلى حمار ، "ويقع هذا الحمار في أيدي الكثير من اللصوص ، وينتقل من يد إلى يد ، و يقاسي آنذاك الجوع وضربات العصا ، ويطلع على ضروب الفسق والعار والظلم في مخاطرات كثيرة ، يعود إلى حالة الإنسان على يد كاهن للآلهة (أيزيس) "26 ، ويبدو أن هذه الرواية ساهمت في تشكيل وعي شعبي قديم يتخذ من الأساطير مرجعا معرفيا كلما غاب عنه تفسير منطقي لحوادث الواقع .

وتأسيسا على ما تقدم يظهر أن الخيال الشعبي استلهم في حكاياته الأساطير المتوارثة عبر العصور مثل ما ورد في الحمار الذهبي ، وفي حكايات ألف ليلة وليلة الطافحة بحكايات المسخ ، لكن لا يجب أن نغفل جانبا مهما وهو إمكانية استلهم قصص المسخ من القرآن الكريم كذلك ، فقد جاء في الذكر الحكيم قوله عزّ و جلّ : " وَقُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ "27 ، يبين هذا الاستشهاد حدوث ظاهرة المسخ في تاريخ البشرية وتحول الآدمي عن صورته الأصلية التي كرمه الله بها إلى صورة عجيبة مثلت في القردة والخنازير ، عقابا لبني إسرائيل الذين لم يمثلوا لأوامره ونواهيه ، ولا نبتغي من هذا الاستشهاد مآلاته ودلالاته الدينية ، لأن مقصدية البحث لا تقتضي ذلك .

واللافت للانتباه أن هذا الاعتقاد لا يزال شائعا ومتجذرا في ثقافتنا الشعبية في المجتمع الجزائري ، فقد يقول قائل للآخر في حال اختلافهما في الرأي (روح الله بمسحك)! دون أن يعرف ظاهرة المسخ.

وتعد تيمة المسخ والتحول بمختلف صورها وتشكلاتها ، عنصرا مساهما في خلق بعد عجائبي في ثنايا الحكاية الشعبية ، ومنه ما جاء في حكاية " حدّ الزين " التي تروي قصة امرأة جميلة ، تدعى حدّ الزين ، أُعجب بها السلطان بعد أن التقى بها في رحلة صيد مع خادمه ، وطلبها للزواج ، وبعد أن تجهزت وانطلقت في موكب العروس الذي ترافقها فيه ابنة عمها الحسودة لهذا الزواج ، والتي تطعمها فيه حدّ الزين كسرة مالحة ، فيصيبها العطش ، فتساوم ابنة العم الزين في لباسها مقابل سقاية الماء ، فترضخ لها حدّ العروس ، وتتولى ابنة عمها مكائحا كعروس للسلطان .

والعجيب في هذه الحكاية الشعبية الجزائرية أن السلطان بعد أن رأى جمال ابنة العم لا يرقى لجمال الفاتنة الأولى ، فإنه يستسلم لمبررات ابنة العم غير المعقولة ، ولا يشك فيها ، أما حدّ الزين فإن ابنة عمها تستعين بالسحر وتمسخها إلى حمامة وترميها من أعلى الجبل ، فتظل تلك الحمامة تتردد على قصر السلطان ، فتذبجها ابن العم ، فتمسخ مرة ثانية إلى نبات اليقطين ، وبمساعدة خادمة السلطان تنتهي معاناة البطلة ، وتعود إلى هيأتها الإنسانية وتعيش معها ، إلا أن يأتي السلطان إلى بيت الخادمة صدفة ، فيلاحظ حدّ الزين عندها ، وتنتهي الحكاية نهاية سعيدة باسترجاع السلطان زوجته وقتله المرأة الشريرة .

الملاحظ في هذه الحكاية، هو دور السحر في تحقيق المسخ، فبعد أن "استغنى الإنسان في الحكاية العجيبة عن الآلهة وأنصاف الآلهة، ولعبت الكتب السماوية دورا كبيرا في ذلك، ولكنه أصبح في أمس الحاجة لشخصية مانحة تسلمه الأداة السحرية بعد تعرضه لاختبار ترشيحي، وهذه الأداة تجعل البطل مختلفا عن جميع أقرانه، وتمكنه من اصلاح الافتقار وتعويض النقص"، وبذلك يكون السحر أداة مساعدة للبطل للخروج من حالة المسخ والعودة إلى الحالة السوية.

ليست الحكاية الشعبية مجرد تسلية ونزوع خيالي، يهرب من الواقع ليؤسس لعالم مثالي، بقدر ما هي غوص في الذات الإنسانية، وكشف لكوامنها الشرية، إذ نلاحظ أن سبب المسخ هو الحسد الذي حرك ابنة العم، ونفسه الحسد الذي ينخر المجتمع ويفكك أواصر المحبة بين أفرادها، فكأن هذه الحكاية الشعبية تهدف لتسليط الضوء على هذه الظواهر السلبية، وتعالج المظاهر السلبية في المجتمع معالجة إيجابية، وهذا ديدن الحكاية الشعبية.

4 . 3 الفعل العجائبي في قصص الصوفية وأولياء الله الصالحين:

يتسلل العجيب إلى القصص الديني من خلال حكايات الأولياء الصالحين، وإيمان الأوساط الشعبية ببركاتهم، والأعمال فوق الطبيعية المنسوبة إلى قدراتهم الخارقة كالأستعانة بالجن، ومعرفة الغيب.

تعود نشأة هذه الحكايات إلى مجالس الجماعات الصوفية، وقد غذتها طقوس هذه الجماعات، ثم انتقلت إلى الأوساط الشعبية الأخرى عن طريق دعاة الطرق الصوفية والرواة المحترفين، "وبلغ شيوخ التصوف من الاحترام والتعظيم درجة التقديس وشكلوا وسطاء بين الله وعباده، وإن تراجع مستوى الثقافة وانتشار الخرافات من أهم العوامل وراء هذا الاقبال، كما أن طغيان التصوف العملي سهل للعوام الانخراط في هذه الطرق، حيث لا يتطلب ذلك كبير عناء ولا جهدا لتحصيل مستوى محترم من الثقافة"²⁸ وكان غرضهم من نشر هذه الحكايات كسب مريدين جدد.

يقوم برواية هذه الحكايات الشعبية العجيبة رواة محترفون ينسجون فيها عجائب كرامات أقطاب الصوفية، فيختلقون لهم مواقف وأحداثا عجيبة ويصورونهم بقدرات خارقة للعادة، تمكنهم من الاستعانة بالجن، وبالطرق السحرية.

وما يروى في هذا الصدد حكاية المتصوف الذي خطب فتاة من أبيها، فرفض هذا الأخير تزويجه منها، فبعث إليها بجني حملها إليه في الليل في بيته بالقريّة²⁹، يتجلى العجيب في هذه الحكايات بصورة مفارقة لما سبق التطرق إليه، من حيث أن شريحة من متلقي هذه الحكايات لا يشعرون بالتردد في قبول أحداثها، بل ينزعون إلى تصديق محتواها، وإن كان مخالفا لنواميس الطبيعة، وهذا راجع لارتباطها بمقدس الدين.

ومن الحكايات الشعبية التي تعكس معجزات الأولياء الصالحين بنفحات عجائبية حكاية "سيدي عبد القادر والعجوز"³⁰ والتي تدور أحداثها حول نفر من هؤلاء الأولياء إذ التقوا وترافقوا يبحثون عن من يقبل أن يستضيفهم، ولم يقبل أحد استضافتهم فيما عدا عجوز كفيفة فقيرة تعيش مع ابنتها في كوخ، ولا تملك في البيت

سوى عنزة وحفنة من شعير، ورحبت العجوز بالضيوف، وخرجت تبحث عمن يمنحها طعاما لضيوفها، فامتنع سكان القرية عن اطعامهم، فعادت إلى البيت قلقة، فسألها الضيوف عن حالها، فشكت لهم ضيق ذات اليد، فطلب منها الشيخ عبد القادر أن تأتي بحفنة من شعير وأن تحضر الرحي، ثم قام وفرش ثوبه تحت الرحي وشرعت ابنتها تطحن حفنة الشعير، وفجأة تكاثرت الشعير وإذا بالبنات مستمرة في الطحن لمدة طويلة، فملأت كل ما في البيت من أوعية، واستمر الدقيق يفيض على جوانب الرحي، عند ذلك أمرت المرأة ابنتها بأن تذبح العنزة الوحيدة التي تستفيد بلبنها، وعندما حضر الطعام طلب منها "سيدي عبد القادر" أن تستدعي جميع أهل القرية ليشاركوهم طعامهم، وقضى الأولياء ليلتهم، وفي الصباح قاموا ليغادروا الكوخ، ولكن قبل أن يغادروه، اتفقوا على رد الجميل للعجوز، فأحضر أحد الشيوخ ابنها الذي جندته فرنسا في صفوف جيشها، وصنع لها آخر بيتا يقوم على ركائز من ذهب، بينما رد لها شيخ آخر بصرها وأحضر لها قطيعا من الغنم انتقاه من قطعان الناس الذين لا يؤدون الزكاة.

يقف المتلقي لهذه الحكاية العجيبة في أفعالها الخارقة لنا موس الطبيعة حائرا، أمام جملة من الكرامات التي خرقت الواقع كرد البصر، وتكاثر حفنة الشعير، وقد نلمس لهذه الحكاية مقاربة مع الواقع، فمن العجيب أن هذه سرد هذه الحكاية جاء وكأنه يحاكي "الواقع في المغرب الأوسط خلال القرن التاسع الهجري، وكأنه الدليل القاطع والوحيد على الولاية... وفي أثناء تناقل الخوارق بين العوام كانوا يضيفون عليها الكثير مما تنسجه مخيلاتهم من أوهام ومن فرط الانبهار بالأولياء"³¹ فيتساءلون عما إذا كان الذي صدر عن الولي واقع أم خيال، وفي هذه المرحلة يمكن أن ينطلي عليها قول تودوروف عن (التردد) الذي يقع فيه الإنسان إن تجاوز مظاهر الطبيعي والعادي، وهو الذي يجعل المتلقي لا يلبث على حالة واحدة، جراء طبيعة الحدث فوق الطبيعي الذي واجهه في الحكاية. لكن ترجع طبيعة التعامل مع الأولياء إلى درجة إيمان المتلقي بها، ذلك أن "سامع القصة ليس مجرد مشاهد لأحداث تسلية ومتعة دون أن يشارك بوعيه في ذلك بل العكس، إنه جزء لا يتجزأ من بنية تمثيلية تشكل اللحمة العميقة والمستمرة الدائمة لكل الأحداث التي تحل بالعوالم المخلوقة وتاريخ البشرية"³²، فالإنسان دائما يحلم بعالم النعيم الذي يحقق له كل طموحاته، فيجد في هذا النمط من الحكايات متنفسا وانعتاقا من العالم الواقعي إلى عالم الكرامات الذي يتحقق فيه قيس من حظ النفس البشرية التي يعانقها الوهم، ولا يجررها من الواقع المثقل بتشعبات الحياة المشبعة بالمألوف والعجيب.

الخلاصة:

وصفوة القول فإن الحكايات الشعبية العجائبية في الجزائر، شكل من أشكال التعبير الشعبي، إذ تميزت ببساطة أسلوبها وجمالية لغتها التي منحنتها هويتها المحلية المميزة، وتجدد الإشارة إلى أن هذه الحكايات الشعبية التي خصت بها الدراسة لا تكتفي بأن تكون خطابا تسلويا، لا يحمل مقصدية غير ذلك، بل هي خطاب غني بمضامين وقيم عميقة عمق تفكير الجماعات الشعبية الجزائرية.

بل تتعدى ذلك بأن تكون نمطا إبداعيا إنسانيا، حُلق من الخيال الذي لا شاطئ له، شخصيات عجيبة خارقة للمألوف، مثيرة للعجب في النفس، فتوظيف المسخ أو الغول مثلا في الحكايات لا يطلب منه الترويع فقط، بل هو انعكاس للوحشية التي يمكن أنت يصل إليها الإنسان، وما العجائبي في الحكاية الشعبية إلا قناع يتوسل به لغرس القيم والمبادئ التي نشأت عليها الشعوب وحرصوا على التمسك بها، وهذا التوظيف العجيب وهو ما يسمح بأن يفتح باب خطاب الحكاية الشعبية العجائبية على مصراعيه أمام التأويلات المختلفة، والقراءات المتعددة .

الهوامش:

- 11 بطرس البستاني، محيط المحيط، (مادة ع ج ب)، مكتبة لبنان: بيروت (د ط)، ص 576.
- 2-Paul Rober , Le Petit Robert ,nouvelle édition ,Paris ,1987, p 1186.
- 3- كمال أبوديب، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي، دار الساقبي، ط 1، بيروت، لبنان، 2007، ص: 8.
- 4- تودوروف مدخل إلى الأدب العجائبي، تر/الصدقي بوعلام، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط 1، 1993، ص 44.
- 5- المرجع السابق، ص 65
- 6 حسين علام، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف، ط 1، 2010، ص 29.
- 7 شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص 31.
- 8 المرجع السابق، ص 31.
- 9- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، مجلة الكرمل، فلسطين ع 40-41 يوليو 1991 ص 111
- 10 - جميل حمداوي، الرواية العربية الفانتاستيكية، مقال متاح على الشبكة - <http://www.arabicnadwah.com/articles/fantasia-hamadaoui.htm>، اطلع عليه بتاريخ: 2019/10/10، في الساعة: 20:30
- 11 المرجع السابق اطلع عليه بتاريخ: 2019/10/10، في الساعة: 20:30
- 12 - ترفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص 87.
- 13 نجاح منصوري، سحر العجائبي في رواية "السراب... قليلا"، مجلة مخبر، ع 8، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري - جامعة محمد خيضر - بسكرة الجزائر، 2012، ص 146.
- 14- المرجع السابق، ص 146.
- 15- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار المعارف، ط 3، القاهرة، د ت، ص 134.
- 16 - رولان بارت وجرار جنيت: من البنيوية إلى الشعرية، تر: غسان السيد، دار نوي للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، 2001، ص 13.
- 17 - عمر أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الاول، عالم الكتاب، 2008، ص: 540.
- 18 نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 81.
- 19 فاروق خورشيد، عالم الأدب الشعبي العجيب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 1، 1991، ص: 129.
- 20 المصدر السابق، ص: 133.
- 21 حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي، مقاربة انثروبولوجية، د ط، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009، ص: 117.

- ²² عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص 26-27.
- ²³ القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 70.
- ²⁴ غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نخبضة مصر، 1997، ص 467.
- ²⁵ عبد القادر عواد، العجائبي في الرواية العربية المعاصرة، آليات السرد والتشكيل، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2011/2012 (مخطوط) ص: 290.
- ²⁶ غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 467.
- ²⁷ القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 60.
- ²⁸ بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م)، دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، 2003، ص: 248.
- ²⁹ ينظر: عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 112.
- ³⁰ ينظر: المرجع السابق، ص 112-113.
- ³¹ بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م)، ص 249.
- ³² محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الساقي، ط6، 2012، ص 203.

المراجع:

- القرآن الكريم.

● المؤلفات:

- بطرس البستاني، محيط المحيط مكتبة لبنان: بيروت (د ط).
- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م)، دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، 2003.
- تودوروف مدخل إلى الأدب العجائبي، تر/الصدقي بوعلام، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط 1، 1993.
- حسين علام، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد منشورات الاختلاف، ط 1، 2010.
- حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، د ط، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009.
- الخليل الفراهيدي: معجم العين. تح / مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. ج 1، منشورات مؤسسة الأعلمي، لبنان، بيروت ط 1، 1985.
- رولان بارت وجرار جنيت: من البنيوية إلى الشعرية، تر: غسان السيد، دار ننوي للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، 2001.
- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 2009، 1.
- عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- عبد القادر عواد، العجائبي في الرواية العربية المعاصرة، آليات السرد والتشكيل، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2011/2012 (مخطوط).
- عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989.

- عمر احمد مختار ،معجم اللغة العربية المعاصرة ،المجلد الاول ،عالم الكتاب ،2008.
- غنيمي هلال ،النقد الأدبي الحديث ،دار نضضة مصر ،1997.
- فاروق خورشيد ،عالم الأدب الشعبي العجيب ،دار الشروق ،القاهرة ،مصر ،ط 1،1991.
- كمال أبوديب ،الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي ،دار الساقبي ،ط 1 ،بيروت ،لبنان ،2007.
- محمد أركون ،الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ،ترجمة و تعليق: هاشم صالح ،دار الساقبي ،ط6 ،2012.
- ابن منظور ،لسان العرب. تح: عامر أحمد حيدر ،ج1 (مادة ع ج ب) دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان-ط1 ،2001.
- نبيلة إبراهيم ،أشكال التعبير في الأدب الشعبي ،دار المعارف ،ط3 ،القاهرة ،د ت.

● المعاجم الأجنبية:

- Paul Rober, Le Petit Robert, nouvelle édition, Paris ,1987.
- le Petit La Rousse, librairie la rousse 2009, Paris, Ed : Anniversaire De La Semende.

● المقالات:

- شعيب حليفي ،شعرية الرواية الفانتاسيكية ،مجلة الكرمل ،فلسطين ع40-41 / 1 يوليو 1991.
- عيفاوي سليمة ،امثال الحكاية العجيبية الجزائرية للنموذج الوظيفي ،قراءة مورفولوجية في حكاية ولد المحفورة العجيبية ،جسور المعرفة ،المجلد 3 ،ع:12 ،ديسمبر 2017
- نجاح منصور ،سحر العجائبي في رواية "السراب... قلبلا" ،مجلة مخبر ،ع 8 ،أبحاث في اللغة والأدب الجزائري –جامعة محمد خيضر –بسكرة الجزائر ،201.

● مواقع الأنترنت:

- جميل حمداوي ،الرواية العربية الفانتاسيكية ،مقال متاح على الشبكة
<http://www.arabicnadwah.com/articles/fantasia-hamadaoui.htm>